ثلاث شخصيات فى مسرحيات سوفوكليس

أذكر للكاتب الشهير فرنسوا مورياك عبارتين عندما أفكر فى مسرحيات سوفوكليس (٤٩٨ — ٤٠٦ ق.م)، وأحاول أن أطوى تحت كلمات قليلة المعانى الفلسفية العميقة التى تحملها بين سطورها . وردت العبارة الأولى فى قصة عنوانها « ثوب الشباب »، وهى : « فى كل إنسان شئ يفوقه بكثير » . وجاءت الثانية فى قصة « نهر النار » ونصها : « إنه كان يخشى منها على نفسه أكبر خيانة وهى أن تصبح غير التى ألفها » .

ويبدو لى أن سوفوكليس لم يطمح إلى أن يعلّمنا شيئاً غير هذا ؛ وهو يضع تحت أنظارنا أناساً عند مفترقات الحياة، فى آونة عسيرة قاسية، وهم عاكفون على تعرف شخصياتهم وضمائرهم، ومقبلون على اللحظة الثمينة التى يثوب الانسان فيها إلى نفسه، فيفطن لكل ما يستطيع أن يأتيه من أعمال وأن يعالجه من أمور يعرض لها، ليحاول، كما يقول أندريه جيد فى « ثيسيوس »، أن « يمضى إلى أبعد مما بلغ » . وتلك القوة اللانهائية التى نحملها بيننا وبين أنفسنا فى أعماق ضمائرنا هى التى برع سوفوكليس فى التنبه إليها فى الشخصيات التى وجدها فى الأساطير والتاريخ، وهو يعلم حق العلم أن المواقف الحرجة الخطيرة، والأهوال الشاقة العسيرة، هى وحدها التى تعين الانسان على أن يدرك حقيقة نفسه، وهى تلقى له القناع عن عالم داخلى كان يجهله، وعن إرادة حاسمة تريد أن تعمل دون أن تقوى أية عقبة على ردها عن العمل .

وأنا إذا ذكرت كلمة « الارادة » لا أقصد قطعاً ذلك الميل إلى الالتزامات الخلقية والقيود الفكرية، الذى يحبب إلى الانسان الحلول الصعبة، ويدفعه إن لم يستدرجه على رغمه، إلى التصرفات التى يأباها عقله وتنفر منها طبيعته . فالإرادة التى يتكون منها الركن الأساسى فى مسرحيات سوفوكليس إنما هى الحرية التى تقيم وزناً للقوة الإلهية فى العالم، وتترك لإرادتنا فى الوقت نفسه مجالا واسعاً لتتقدم على ما تحب وتحجم عما تأنف .

ليست الحرية فى آثار إيسكيلوس، وبنوع خاص فى « الأورستيا »(١) بالشئ الواضح البارز الذى يسيطر على ذهن القارئ أو الشاهد ، ولكنه ، على عكس ذلك ، وجود قدر محتوم يفوق الأبطال ويسحقهم . فكلوتيمسترا وألكترا وأورستيس يشبهون الدمى قيدت أطرافها بالخيوط واضطرت إلى حركات معينة . فالغضب السائد على قصر أجاممنون يريد أن يثأر لقتل فتاة (٢) ؛ ولا بد له من آلة ، فلتكن كلوتيمنسترا تلك الآلة ، ولتقدم على قتل زوجها ؛ وهى تعلم أن هناك قوة تقودها إلى ارتكاب الإثم ، ونسمعها تتحدث عنها فى موقفين من المسرحية قائلة : « هذه القوة بين أحشائنا تقوى ظمأنا إلى الدم » ثم « تمضى الأشياء كما يجب أن تكون » . وفى مسرحية « الصافحات » يقول رئيس الجوقة لأورستيس : « إلى العمل ، واخضع لتجربة القدر » ، وفى مسرحية « المنتقمات » ، يوجه أبولون حديثه إلى أورستيس ليحميه من شر آلهة السوء والثأر قائلا : ألست أنا الذى دفعك إلى طعن أمك ؟

ومن هنا كان اعتقادنا أن البطل الرئيسى فى مسرحيات إيسكيولوس ليس رجلا أو امرأة مثل فيلوكتيت أو ديجانير (زوج هركل) فى آثار سوفوكليس ؛ فالأدوار الهامة فى آثار إيسكيلوس تقوم بتمثيلها آلهة الأولمب عوضاً عن البشر ، وقد تستعين الآلهة بالمخلوقات لتحقيق إرادتهم على حين يلتمس البشر مساعدة الآلهة فى مسرحيات سوفوكليس ليعينوهم على ما يريدونه من أهداف .

ولننتقل الآن إلى هذه المسرحيات لنواجه الأبطال الرئيسيين ، وهم يقاسون المتاعب والمعضلات التى تعرض لهم ؛ ولنرى مثلا أهناك مواقف لم يبرهنوا فيها على تمسكهم بالمبادئ الخلقية وبالمثل العليا فى الحياة ؛ وهل حدث لهم مثلا أن يقبلوا على تلك الخيانة الكبرى التى وصفها مورياك بأنها حالة يكون فيها الانسان على غير ما ألف أن يكون أمام ضميره وأمام الناس .

وليس فى نيتى أن أعطى فكرة شاملة عن آثار سوفوكليس ولا أن أعرج على دراسة أخلاق الأبطال وطباعهم ؛ وكل ما يعنينى فى هذا المقال أن أتبين كنه بعض الانفعالات النفسية . وأنا إذا فعلت ذلك لا يفوتنى أن أفطن لما

---

(١) ثلاث مسرحيات تصور مصرع أجاممنون بيد امرأته وانتقام ابنه منها ثم معاقبة ابنها على هذا الانتقام .

(٢) هى ايفيجينى التى ضحى بها أبوها أجاممنون لتسمح له الآلهة بعبور البحر إلى طروادة .

يتعرض له مثل ذلك البحث من نقص و إخفاق لكثرة العوامل الخفية التى تدفع الانسان إلى العمل والكلام ، والتى يصعب على الباحث أن يخضعها لأساليبه فى التحرى والنقد ، إلا إذا كان له بها دراية كاملة وتجربة شخصية ؛ والشئ الوحيد المشجع هو أننا نعرف مع سوفوكليس ، كما نعرف مع راسين ، منذ المشهد الأول من اثارها ، جوهر الموضوع ، وحقيقة الصراع الداخلى الذى تتكون منه عقدة المسرحية ، فلا تلبث تلك المشكلات النفسية وتلك المواقف الشاذة المؤلمة التى يعانيها أبطال القصة أن تثير فى نفوسنا حب الاستطلاع لحاد لشدة ما تحتوى عليه المأساة من عنف وقسوة .

فلننظر إلى شخصية أياس مثلا فى المسرحية التى أطلق عليها سوفوكليس اسم هذا البطل : إنه يعد نفسه فى مأزق وفى حالة نفسية يرثى لها ؛ فقد أهدى الجيش اليونانى إلى أوديسيوس أسلحة أخيل ، مثيراً بذلك غضب أياس وسخطه وعزمه على سفك الدماء ، وقد ضللته أثينا ، فأخذ يعمل بسيفه فى ماشية اليونانيين ، وهو يخالها جماعات من الرجال ؛ وقد أثمله منظر الدماء السائلة بغزارة حوله ؛ ثم يعود إليه صوابه ، فيفطن لما أقدم عليه ، ويتبين الأمور على حقيقتها ؛ وهو إذا أمعن النظر فى الماشية التى نحرها ، اضطرب وارتعد ؛ لأنه سيصبح أضحوكة أعدائه .

وينبغى هنا على الشاهد أو القارئ أن يضع نفسه فى شخصية أياس ليلحظ ما فى موقفه من يأس وعذاب ؛ فمن هو هذا الرجل ؟ إننا نعرفه بما وصفه به هوميروس فى الالياذة من شجاعة وقوة ، ومن الصورة التى تركها لنا عنه سوفوكليس فى مسرحيته . فاذا تحدث عنه أوديسيوس وصفه « بأياس ذى الترس المعروف » (١) وهو يعلم قدر جرأته وبطشه ؛ ولذلك يرتعد عندما يتوقع خروجه من الخيمة ، ويستحلف أثينا : « ألا تطلب إليه البروز » . وتسأل الآلهة أوديسيوس : « أى رجل يمكنه أن يكون أعقل منه وأشجع منه إذا جد الجد ؟ » فيجيبها : « لا أعرف أحداً يعدله عقلا وبأساً » . و إذا تحدث أياس عن نفسه قال : « أنا الذى يفاخر بأن طروادة لم تر مثله أحداً » . فكيف لا يجذب مثل

---

(١) العبارات التى نستشهد بها فى مسرحيتى « أياس » و « أوديبوس ملكا » مقتبسة من ترجمة الدكتور طه حسين بك لسوفوكليس فى كتابه « من الأدب التمثيلى اليونانى » .

هذا الرجل غضب الآلهة ! ولا بد لمثل هذه الكبرياء الفادحة المهينة أن تنزل بصاحبها أشق العذاب ؛ ولكن لم تكن هذه الضرورة كافية لتحط من شأن أياس ، ولتضعف إيمانه بحقه ؛ فعزة النفس تشرف صاحبها ، وإن أياس من الذين يقبلون الشدة ويواجهونها بشجاعة ، ولا يعرضون ، بينهم وبين أنفسهم ، وبينهم وبين الناس ، عن الطريق الذى دأبوا على سلوكه ؛ والمثل العليا التى يستنير بها أياس ويسترشد بها فى تصرفاته واضحة ، لا يعتريها أى تردد ، وهو يقول : « إنما قصارى الرجل الكريم أن يعيش ماجداً أو أن يموت كريماً. وهو يريد قبل كل شئ أن يكون كريماً ، وأن يقاوم كل عقبة حتى لا تحدثه نفسه بأية خيانة ؛ فهو لا يرضى بحكم أثينا ، ولا أن يتخذ من السكوت حلا يلجأ إليه وراحة ينعم بها ، ولكنه على ذلك لا يئن ولا يتظلم ، وهو يقول : « إن الشكوى لا تليق إلا بالجبناء والضعفاء » ؛ أما هو فمحارب ، مقدام ، وجرئ لا يلازمه إلا النجاح ، فكيف يتراجع ويسلم نفسه للعدو ؛ وهو يؤثر الانتحار على عيش تنغصه السخرية والاهانة ؛ وقد يحرم عليه احتقاره لأعدائه أن يترك لهم فرصة الانتصار عليه . كلا ! إنه لن يسمع تهكمهم ، ولن يعرض نفسه لأذاهم ؛ وما من حل أمام أياس سوى الانتحار ؛ فهو يعلم ذلك ، ويقدر أهميته ، ويتنبأ بوقعه فى نفوس من يتركهم ، وهو يذكر ابنه الذى يحبه ، ويرق قلبه لاستعطاف زوجه ، ولكن كل ذلك لا يبقى له أثر بمجرد اصطدامه بتلك القوة الداخلية التى أشرنا إليها فى مطلع المقال ، والتى تفوق الانسان ، ولا ترضى إلا بأن تكون لها الكلمة الأخيرة فى كل جدال أو نزاع .

وهناك وجه شبه بليغ بين شخصية أياس ومسرحيته ، وشخصية فيلوكتيت ومسرحيته : إنه معذب مثل أياس ، لدغه ثعبان أثناء حملة طروادة ، فخاله اليونانيون مقصوداً من الآلهة ، وضاقوا بجرحه ، حتى إنهم نفوه إلى جزيرة ليمنوس ؛ فعاش بها عشر سنين فى عزلة وتقشف تام لخلو منفاه من السكان . وفى المشهد الأول من الفصل الثانى ، يقص فيلوكتيت على نيوبتوليم قصة بؤسه ؛ فلا يصعب علينا أن نتصور ونقدر عذابه ؛ فهو يقاسى ألم العزلة المادية ومشقة الوحدة النفسية فضلا عن دائه الذى يشتد عليه فى كل يوم . أما الأخبار التى يحملها إليه نيوبتوليم فانها تزيده حزناً ويأساً،

لأنها تعرفه موت أخيل وأيأس وأنتيلوك ، وشقاء نستور . فيمتزج صوت هؤلاء الأعزاء بصوت الوطن ، وتصبح حياته لا تطاق ؛ إنه يريد أن يعود إلى بلاد اليونان ليرى أباه ، ويتوسل إلى نيوبتوليم ألا يهجره : فيرضى ؛ ويبتهج فيلوكتيت ، ويتغنى بسعادة ذلك اليوم . ولكنه — وهنا نلمس أدق ناحية فى المسرحية — يعلم أن اليونان فى حاجة إليه ليحالفهم النصر فى حرب طروادة ؛ فيحدث لساعته انقلاب قوى فى نفسه ، ويتحول الفرح إلى حزن ، والأمل إلى يأس ، والابتسام إلى عبوس ؛ فقد زال القناع عن كل شئ ، وظهرت له الأمور ، كما ظهرت لأياس ، واضحة ، جلية ، قاسية : أياس قد ضللته أثينا ، وفيلوكتيت خدعه الناس ، وعاملوه كما يعامل الانسان الآلة التى يلجأ إليها ثم يتركها فى زاوية إذا فرغ من استخدامها .

أما هذا الرجل فانه ، بالرغم من الآلام الطويلة التى أوهنت بدنه ، يحتفظ بقوة إرادة لم يضعفها ولم يمسها أى سوء ؛ فهو يعلم أنه لن يلين ، وأن اليونان الذين أهانوه وأذاقوه ألواناً من الشقاء لم تطرق بخاطره ، لن ينالوا منه شيئاً . ونيوبتوليم ، وهو أكثر حكمة أو بالأحرى أقل بؤساً ، يتحدث عن « الضرورة » وعن « القوانين » ، ولكن فيلوكتيت لايفهم هذا الحديث مع إدراكه أن حياته متعذرة فى ليمنوس إن هو بقى على عصيانه ، وقد جرده نيوبتوليم من قوسه وسهامه . وفى موضع بعينه من المسرحية عند ما يأخذ ، أوديسيوس فى تأنيبه ومعاملته بعنف ، يقول فيلوكتيت الأعزل القوى فى آن واحد ، هذه العبارة التى تهمنا فى هذا البحث : « ما أشقانى ! ألم يجعل أبى منى رجلاحرا ؟ » ثم هو يفكر مثل أياس أن يلقى نفسه فى أحضان الموت بمحض إرادته وحريته : « سأندفع إلى هذه الهاوية لأشج رأسى وأنا أقع من أعلى تلك الصخور » .

غير أن فيلوكتيت حريص على صداقة نيوبتوليم ، وربما أبى أن يكون إلى النهاية الرجل المنعزل الذى يعاند ويلح فى امتناعه ، ويحرم نفسه ، تحت تأثير الكبرياء ، لذة المغفرة وعذوبة الوئام ؛ فقد عاونه إيمانه بحريته على معارضة اليونان وحمله عليهم . أما الآن ، وقد طرق أذنيه صوت الصديق المقنع ، وسعت إليه الآلهة تستميله وتستعطفه ، فانه يستمد من حريته مايساعده على أن يأخذ نفسه بشئ من الرفق والهدوء ، وأن يجيب اليونان إلى مايطلبون ؛ وإن كان فى تصرف فيلوكتيت وفى تفهمه للحرية شئ أقرب

إلينا مما يصدر عن أياس ؛ فانه من الخطأ أن نؤثر الأول على الثانى : ليس لنا أن نفصل بينهما ، ولا أن نحكم عليهما ، وكل ما يعنينا هو أن الإرادة فى المسرحيتين هى العنصر الأساسى والعامل الجوهرى .

أما أويديبوس فيكفى أن يلفظ اسمه ليسبح خيال السامع فى عالم الأساطير الخالدة التى طالما استقى منها الكتاب موضوعات مسرحياتهم أو بعض عناصرها. ونحن إذا عكفنا على مسرحية « أويديبوس ملكا » نجد أنفسنا أمام رجل عطوف يؤلمه منظر البؤس الذى يسود البلاد التى يحكمها ، وهو لا يبخل بشئ فى سبيل معالجته وإبداله بأسباب السعادة والرفاهية ، لينعم السكان ، ولا سيما المحرومون منهم ، بذلك الفرح الساذج البرئ الذى يشيع فى النفس إذا زال عنها ألم الحاجة والفقر وثقل البؤس والقنوط . نسمعه يقول متحدثاً إلى شعبه : « لست أجهل أنكم تألمون جميعاً ، ولكن ثقوا بأن ليس منكم من يألم كما آلم » . وهو على أتم استعداد ليضحى من تلقاء إرادته بكل شئ لينسيهم وطأة ذلك العذاب المضنى ؛ يستنجد كريون بأبولون ، ويتضرع إليه ، فيأمر الإله بالتحرى عن قاتلى لايوس وينفيهم عن البلاد أو الحكم عليهم بالقتل ؛ وهنا يصمم الملك أويديبوس ، فى شئ من الكبرياء الواضحة ، (وقد يؤاخذه عليها كريون فيما بعد) ، وهو يسعى وراء مصلحة غامضة قوية ، على أن يرجع إلى « المصدر » ، ليكتشف المجرم . وقد انقضى زمن طويل منذ ارتكاب الجريمة ، ولكن الملك لا ييأس ، بل يتسلح بذلك الصبر العجيب الذى يتصف به جميع أبطال سوفوكليس . وربما فكر البعض أن هناك إرادة إلهية عبر عنها أبولون لابد لها أن تنفذ ، وأن تعيد الأمور إلى نصابها ، كما هى الحال فى آثار إيسكيلوس . وقد قدمنا فى مطلع المقال الجواب على هذا الاعتراض عندما أشرنا إلى البون الشاسع بين مسرحيات الشاعرين . ليس أويديبوس لعبة تتناولها الآلهة ، وهو يعلن ذلك حينما يقول : « قد أنبأنا بذلك وحى الإله . كذلك أريد أن أنفذ أمر الآلهة وأن أثأر للملك المقتول » . ففى استطاعة أويديبوس إذن أن يتحرر من إرادة أبولون ، وهو يقر بالحاح أنه إذا أنصت إلى صوت الآلهة ولبى دعاءهم ، فانما يفعل ذلك بمحض إرادته .

وعندما يكشف تريسياس للملك أنه هو القاتل الذى أمر بالبحث عنه ،

يبرهن أوديبوس على مقاومة نادرة . تأخذه الدهشة من كل صوب ، فتنفر نفسه وتشمئز ، فهى ثائرة أكثر مما هى مضطربة ؛ ولا يفقد الملك وعيه بل يهدأ روعه ، وتمر بخاطره الفروض والتأويلات ؛ فهو يظن فى أول الأمر أنه فريسة مؤامرة دبرها كريون ، وأن الغرض من حديث تريسياس هو إيقاع الريب فى النفوس ، وخلق جو مضطرب مسمم حول العرش . وإذا أتت يوكاستيه بالبينات والأدلة التى تزيل الغموض ، تغمر أوديبوس موجة من الحيرة والقلق ، ويظهر ذلك فى حوارهما السريع المضطرب ؛ ويشعر القارئ حينئذ أنه إزاء رجل أوشك أن يتراجع وأشرف على الهلاك ، ولكنه يحاول ، وقد أثر فيه اليأس ما أثر وأحاطه القنوط من كل وجه ، أن يبذل آخر مجهود ليصون عزة نفسه ، ويبقى رجلا كريماً حرا . يريد الملك أن يستزيد علماً وأن يحصل على أوفر قسط من الحقيقة ، وألا يرده شئ عن معرفة القاتل ، فيحضر الراعى الذى كان أول من خبر الناس باغتيال لايوس ويسأله ويستمع له .

تحاول يوكاستيه ، وهى لا تعير أهمية كبيرة للتنبؤات ، أن تصرف الملك عن ذلك الإلحاح ؛ ولكن أوديبوس يؤمن بحريته ، ويتمسك بها ، ولا يرضى أن يتنحى عما تبيحه له من دقة فى التحرى ومداومة على الاستطلاع ؛ وهو يقول ليوكاستيه : « لا سبيل إلى طاعتك ؛ لابد من أن يتبين هذا اللغز » . ونحن نعلم جليا تلك الحقيقة المحزنة التى بلغها الملك بعد جهد طويل ، ولسنا فى حاجة إلى الامعان فيها ؛ ويكفينا أن نلاحظ ، وذلك كل ما نبتغيه ، أن أوديبوس لم يرتكن إلى شئ كما ارتكن إلى حريته من أول المسرحية إلى آخرها ، من اللحظة التى دعاه فيها بؤس الرعية إلى التفكير والتأمل والسعى وراء الحقيقة ، إلى وهلة الشؤم التى دفعته إلى عالم الظلمة الذى اختاره لنفسه ، وإن لم ينكر أثر أبولون فيما يقاسى ؛ فانه يعترف بأمر خطير إذ يقول : « دفعنى إلى ذلك أبولون ، نعم أبولون أيها الصديق هو مصدر آلامى التى لا تطاق ، ولكنه لم يفقأ عينى إلا أنا وحدى » . وعندما تفزع الجوقة لصورة الملك الضرير وتجرؤ على أن تنكر لون النكال الذى ألحقه بنفسه ، تعاود أوديبوس نزعة كلها عظمة وجلال ، فينفعل لها ويقول : « لا تحاول أن تظهر لى أنى كنت أستطيع أن أفعل خيراً مما فعلت » .

ولم ينته هنا عهدنا بتلك الحرية التامة التى يحتفظ بها الملك فى صميم بؤسه ،

فانها تظهر فى أكثر من مناسبة فى مسرحية « أويديبوس فى كولونا » ؛ ولكنها تختلف إلى حد ما عن الحرية الثائرة الصاخبة التى ألفناها فى « أويديبوس ملكا » ، فقد زال عنها عنفها ، وحل مكانه ذلك الهدوء الذى يتصف به وجه المرء وصوته وما يصدر عنه كلما أيقن بحسن نيته وبطهارة قلبه . بالرغم مما أقدمت عليه يداه من إثم أوجدته الظروف وأبدعه الدهر شر إبداع .

والمسرحية تظهر لنا « أويديبوس البائس » كما تصفه ابنته ، وقد بلغ كولونا بعد هيام طويل ، تقاذفته فيه المدن الواحدة تلو الأخرى ؛ وأنتيجونا تصحبه منذ أصبح ضريراً ، ولم يطع الشيخ إلا ابنته . ومما يستوقفنا فى تلك المسرحية أن الملك الذى كان يضيق بنصائح زوجه ، ويأبى أن يعطى أى حساب عن تصرفاته ، يقول لأنتيجونا ، على مسمع من أهل كولونا ، وهم يزجرونه عن مكان آلهة الانتقام المقدس : « ما العمل يا ابنتى ؟ » ثم يستسلم لرأيها. ولكن الويل لمن يعرض أمامه لسيرة ابنيه اللذين عاونا على نفيه ووافقا عليه بأمر رسمى صدر عنهما ؛ فانه لا يقوى وقتئذ على كبح شعوره ، وعلى رد ذلك اليأس الشديد الذى ينصب عليه ويتغلغل فى نفسه المعذبة . تقبل عليه أسمينا وتنبئه بأن هناك نزاعاً بين إيثيوكليس وبولينيس ، فيجيبها بكبريائه المألوفة قائلا : « لن أدافع عنهما أبداً » ؛ وهو يعلم أيضاً أن كريون أوشك أن يأتى إليه ليرده إلى وطنه ؛ لأن قبره مصدر يمن على الشعب الذى يناله ، ولكن أويديبوس واثق أنه لن يلين ولا يخضع ، مثله فى ذلك مثل من صادفناهم فى المسرحيات السابقة ، وكأننا بفيلوكتيت آخر يمتنع عن العودة إلى وطن أساء إليه ، وآذاه فى حريته ، ودفعه عن أرضه وقصره ، ثم يجرؤ ساعة الحاجة إليه ، على استدعائه . فأويديبوس على عكس ذلك يثبت حريته ، ويقدم نفسه هدية بائسة لثيسيوس الذى رحب به وأكرمه .

يحضر كريون ويحاول أن يقنع أويديبوس بضرورة العودة إلى ثيبة ، فينشأ جدال بين الماكر القوى والضرير الضعيف ؛ والكريم هو أويديبوس لأنه يتمتع بحرية أكبر من حرية كريون ؛ فكريون رسول أهل ثيبه ، مقيد برغبتهم ، وقد تنحى عن شخصيته فى سبيل إرضائهم . أما أويديبوس فهو هو ، بعيد كل البعد عن نزعات الشعب وأوامره والتزاماته ؛ وهو يشعر أن كريون يريد أن يباعد بينه وبين أنتيجونا وأسمينا ، وأنه ربما فكر فى خطفه وإعادته

رغم إرادته ، إلى ثيبة ، ولكنه لا ينفعل ولا يتقلقل لتهديد كريون ونذيره ؛ بل يبرهن على نفس القوة عندما يأتيه بولينيس ، بعد أن طرده أخوه من ثيبة ، ليستغفره ويستنجد به .

هكذا يظهر أوديبوس فى مسرحياتيه لسوفوكليس بشخصيته القوية الوقور التى استطاع القضاء إخمادها دون أن يقوى على إخضاعها .

إذا رأيتنى أحرص على درس بعض الشخصيات فى مواقف قليلة معينة ، فانما فعلت ذلك لتألف قليلا ما فى تلك المسرحيات من معان جوهرية ثمينة ، ولتلمس حقيقة ربما ظهرت غريبة فى أول الأمر ، وهى أن هناك شبهاً أساسياً بين أبطال سوفوكليس ؛ فمشكلتهم الداخلية الخفية هى نفس المشكلة ، إذا صرفنا النظر عن الأحوال والظروف والحوادث والعناصر الخارجية التى تختلف مع اختلاف الشخصية والبيئة والعمر ، وهى مشكلة كل فرد عالم بقيمته الانسانية ، وعازم على أن يقاوم الشدائد الناشئة عادة عن احتكاكه بغيره ، وعلى أن يقهرها مهما يكلفه ذلك من تضحية وعناء . ويبدو لى أنه من الخطأ أن نصفهم فقط بالثائرين الغاضبين الذين لا يقبلون الحياة ، ويرمون ، على كل حال ، إلى تغييرها أو إزالة أثرها ؛ لأنهم فى الواقع لا يأنفون إلا الحياة الذليلة التى تهينهم فيما بينهم وبين أنفسهم ؛ وإيمانهم بالعدل المطلق هو الذى يسمو فى قلوبهم بحرصهم على حريتهم . وما أنين اليأس الذى يصدر من ضمائرهم إلا سؤال موجه إلى الآلهة والانسانية عن معنى البؤس وأسبابه . وإذا غاب الجواب أو جاء مخالفاً لما دأبوا عليه من حقائق الحكمة والعقل فانهم يلجأون حينئذ إلى أقصى الحلول وأخطرها ؛ وهم لا يضعون شيئاً إلا على بصيرة ، وبعد إمعان طويل ؛ وربما سبق السكوت أغلب تصرفاتهم ، وكأنهم ، فى تلك اللحظة الصامتة ، ينصرفون عن العالم الخارجى ليتبينوا بوضوح حقيقة أمرهم ، ولتصل تلك الحقيقة إلى أعماق قلوبهم ، ثم يطفون فوق سكوتهم وتفكيرهم ، إن صح هذا القول ، ويذعنون آخر الأمر إلى هذا الإحساس القوى الذى يقودهم فى الحياة ، أى شعورهم بالحرية التى هى أعز شئ عندهم ، حتى لو جنت عليهم فى بعض الأحيان .

د. محمود فرنيس